المجتمعات الحديثة والعنف الفطرى

فينانت كاوشى Venant Cauchy

يعد العنف مشكلة من أكثر المشكلات ازعاجا فى الأزمنة الحديثة . والحقيقة أننا قد نتساءل عما إذا كان المجتمع المعاصر قد ابتلى بانتشار العنف وشدته ، أم أن الأمر يقتصر على أننا أصبحنا اليوم أكثر وعيا بالعنف ، وطبيعته غير العقلانية ، ومايعبر عنه أو ينتج عنه من ظلم واساءة . أما بالنسبة للفوضى التى عمت العالم نتيجة لغزوات يوليوس قيصر والاسكندر الأكبر ، والاضطراب الذى أحدثته جحافل الرعاة بقيادة چنكيز خان ، والحروب الصليبية ومحاكم التفتيش ، وتوسع الامبراطورية العثمانية ، وحروب نابليون ، وسيطرة الشعوب الأوربية المستعمرة على العالم منذ بداية العصور الحديثة - وهذه اشارة بسيطة لماضينا - ليس من شك فى أنها كانت مصحوبة بأعمال عنف واسعة النطاق وممتدة على مدى الزمان. وماذا عن العذاب التى قاست منه شعوب أفريقيا السوداء التى أدى استرقاقها ، الذى شرعه لويس الرابع عشر فى عام ٦٨٥ تحت اسم قانون السود ، والذى استمر تطبيقه بدون خجل خلال قرون التنوير فى أوربا ، بل وحتى نهاية القرن التاسع عشر ؟.

ماهذه إلا أحداث تاريخية قليلة كان العنف فيها هو العنصر الرئيسى . وبالقرب من المنازل وفيما بين الأفراد ومجموعات الأفراد ، وفي حياتنا اليومية ، نجد أن العنف مثار للاهتمام والجدل : كالعنف الجنسى ، والعنف الأسرى، والعنف بين الأزواج ، والعنف الذى يسببه تجمع الثروات أو بسط النفوذ على الفقراء والمحرومين فى داخل الدولة الواحدة وبين دول العالم ، والتفرقة العنصرية ، والعنف الاجرامى الذى ينتهك حقوق الانسان التى أقامها المجتمع ، والعنف الذى لامبرر له الذى يكاد يتفجر فى مراكز التجمع الحضرى فى العالم الغربى ، وأخيرا مايحدث منذ أقدم الأزمان من ممارسة العنف الجماعى وأعمال الابادة خلال الحروب .

فينانت كاوشى أستاذ الفلسفة فى جامعة مونتريال . وعنوانها
C.P. 6128 Succursale A. Montreal, Canada H3C 3J7
كما أنه رئيس الشرف لاتحاد جمعيات فلسفة اللغة الفرنسية . والاتحاد الدولي للجمعيات الفلسفية . وهو مؤلف عدة كتب أحدثها «مفهوم السلام فى تاريخ الفلسفة» .

والعنف يعنى الاعتداء والتهجم على الأقل بمعناه الضمنى. فتنتهك الحرمات التى تعتبر فكرية أو انسانية بالمعنى الأخلاقى للكلمة . وتسحق وتستباح وتهدر وتداس بالأقدام . وحتى مع الاستعمال المجازى لكلمة عنف ، فإنها تعتبر ترديدا للاعقلانية والمبالغة . ويوصف جريان النهر بأنه عنيف ، حينما تطغى المياه على الشطآن وتخرب المساكن والمواقع من حوله . فبالمثل هناك نوع من العنف نمارسه حينما نرغم أنفسنا على عمل شئ ضد رغباتنا واحساساتنا ومخاوفنا .

والعنف الذى نتناوله هنا يتجاوز ذلك النوع الذى يمارسه انسان ضد آخر . فهو أساسا يتكون من نوع من القوة تستخدم لاحداث تأثير مادي أو نفسى على أناس آخرين يعملون ضد ميولهم ونزعاتهم واحتياجاتهم . فهو لذلك مصدر صراع وتناقضات تتجه إلى تحطيم أو اخماد أو انكار انسانية الشخص الذى يمارس ضده ، وعلى ذلك يكون العنف مصدرا للتفكك أو التشتت مادام يعمل ضد ارادة

الشخص الذى يمارس عليه هذا العنف أو ضد أفضلياته. ولكن هذه القوة المضادة قد تؤدى فى الواقع إلى توليد نمط مادى أو نفسى جديد فى الضحايا ، يظهر فيما بعد للوجود فى شكل حق ذاتى يولد من قوة قد تستمر حتى بعد التوقف عن ممارسة العنف . ولاننسى هنا إلى أى مدى أدى العنف المرتبط بالاستعمار إلى التأثير على رسم الحدود الجغرافية واقامة بنيان اقتصادى واجتماعى للدول فى كل من أفريقيا وآسيا .

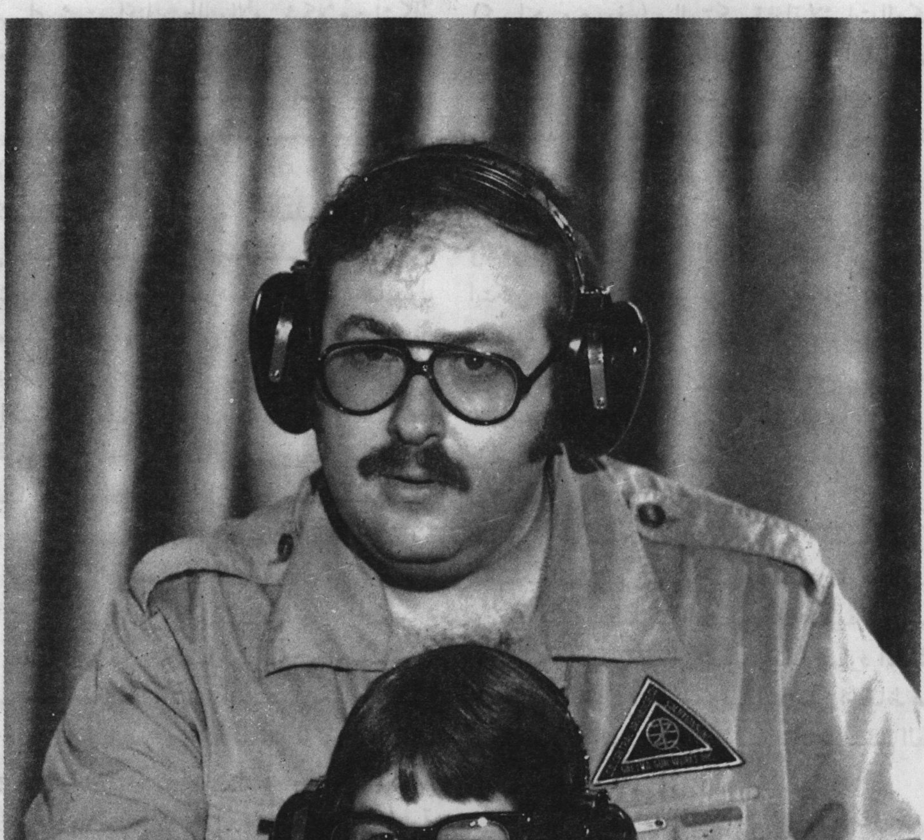
هذا ويمكن القول أن العنف الطبيعى أو الكونى الذى هو موضوع دراسة علوم الأرض أو العنف البيولوجى ونظرية التطور عند داروين ، يتضمن فى ذاته نوعا من العنف يمكن أن يوصف بأنه بشرى ، وهو ما أعتقد أنه موضع اهتمامنا الوحيد هنا . فلو تحطم كوكبنا أو أصبح غير قابل لسكنى الانسان نتيجة تأثيرات القوى الداخلية والخارجية غير المتصلة بأنشطة الانسان ، فسوف يؤدى هذا إلى نهاية عنيفة لقصة الانسانية ، ولكن لايمكننا أن نفعل أى شئ لمنع هذا النوع من العنف ، ولايمكن أن ينسب الخطأ في ذلك إلينا . ولكن من ناحية أخرى ، لو أن انتهاء العنف كان نتيجة لحرب ذرية ، أو لاختلال التوازن البيئى دون رحمة نتيجة لانتشار المواد الملوثة فى الهواء الجوى ، فإننا لانخلى أنفسنا من المسئولية عن تدمير موطننا وكل الجنس البشرى .

ويأتى العنف البشرى نتيجة لأسباب تتمثل فيما أنعم به علينا من قدرة التصميم الذاتى والاستقلالية والارادة الحرة . وهذا هو نوع العنف الذى نكون مسئولين عنه ، وهو العنف الذى قد ينسب إلى البشرية بصورة فردية كانت أو جماعية . وقد تكون تلك المسئولية مسئولية مباشرة (تجرى في الوقت الحاضر) ، أو تاريخية (ترتبط بأعمال تمت فى الماضى القريب أو البعيد) ، ولكن لايكون لها مدلول عملى مالم تصطدم بالوضع الراهن .

ويقتضى البحث فى العنف البشرى أولا وعيا بالحقائق. وفوق تلك الحقائق كما يقول أرسطو ماتتضمنه من العثور على الأسباب والمبادئ الرئيسية . أما بخلاف ذلك فإننا نكون كمن ينحت فى وجه الحاضر الذى تبلور فى تكوينه كل ظلم الماضى وعدوانه وعنفه ، مادمنا نقتصر فى ذلك على وصف التوازن الحاضر والوضع القائم ، فى حين لانستطيع أن نتبين مايختفى وراء ذلك من عنف .

فلقد أدت أحداث العنف فى الماضى والحاضر على السواء إلى دفع الناس للتفكير . فهم يتساءلون بدهشة عن ماهية العنف وعن الأسباب التى تكمن وراءه . ولنذكر هنا على سبيل التذكرة بعض عناصر فلسفة أفلاطون . ففى فيدروس وكذلك فى كل مؤلفاته الأخرى يبدو أنه قد حدد هوية الفرد بالروح ، ومن ثم يبدو الجسد على أنه مجرد حاوية أو حتى سجن تتحدد فيه اقامة الروح لتطهر نفسها من خلال السلوك الجيد تجاه الميول الشريرة التى عوقبت من أجلها بالميلاد . وتختلف الروح الانسانية عن الآلهة الذين يمتازون بطبيعة خيرة ، فهى تبتلى بالاضطرابات التى تهدد الروح دائما بالقذف إلى الأعماق السحيقة . وفى أسطورة الخيول المجنحة ، تقارن الروح بمجموعة فى الخيول يقودها سايس هو كما يقول أفلاطون «القوة الحاكمة فينا نحن البشر تقود زوجا من الخيول ... أحدهما خير وأصيل والثانى عكسه تماما . وعلى ذلك يتحتم أن يكون مهمة قائد العربة فى حالة الانسان مهمة صعبة غير سارة» . وقائد العربة هنا يمثل العقل أو الذكاء ، ويمثل الحصان الشرير المغالاة والافراط وتتجه إلى احباط دور العقل ، وتهدد بسحب قائد العربة وفريقه إلى أسفل سافلين فى العالم المادى .

أما ارسطو فإنه يرى الطبيعة البشرية فى صورة حلول الروح . فالجسد لايعد سجنا ولكنه فى الحقيقة يعتمد على الروح التى تشكله ، فلا يوجد عنف فطرى أو أصلى له علاقة بالجسم كما هو الحال فى رأى أفلاطون . بل على العكس يتمثل العنف عند أرسطو في العمل ضد الطبيعة. ولكل من العناصر الأربعة التى يتكون منها العالم الطبيعى وهى النار والهواء والتراب والماء - اتجاه أو ميل إما إلى أعلى أو إلى أسفل ، وأى تحرك ضد الاتجاه - مثل اتجاه النار إلى أسفل واتجاه التراب إلى أعلى - يعد ضد الطبيعة وبالتالى فهو عنف . ومن الواضح أن ارسطو يقصد بالعنف المعنى الواسع للكلمة ، ولكن قد يعد مكونا سلبيا أو ايجابيا لأية قوة أو دفعة تكون حركتها أو فعلها ضد الطبيعة الفطرية أو ميل أو اتجاه عنصرها . ويعنى هذا فى حالات العنف البشرى ، فعل متعمد يتجه ضد الارادة المباشرة الظاهرة أو الخفية الضمنية للضحية . وقد نفترض حدوث العنف حينما يتهدد التكامل الطبيعى أو العقلى أو المعنوى للشخص خطر ما ، ولكنه قد يعنى أيضا تعويق أو ايقاف تغيير ما فى أثناء توفية أحد الرغبات أو الميول الأساسية . وكما أن هناك حركات يمكن أن توصف بأنها حركات عنف لأنها تتجه ضد الطبيعة ، فإن أرسطو يقول إن هناك أيضا حالات عنف للسكون



مدرسة الرماية : طفل يتعلم استخدام البندقية فى مدرسة يديرها الكرلونيل المتقاعد سيد لوثلس .

(فلكى يبقى أى شئ ساكنا يتطلب الأمر شكلا من أشكال العمل . كما يقول عن العنف بمعناه العام فى كتاب الفيزياء «النص ٦ ، ٢٣١) . وامكانيـــة العنف أمـــر فطرى فى حياتنا ، ليس لأنه من طبيعتنا ، ولكن بسبب مايتعارض مع هذه الطبيعة .

واستكمالا لهذه النظرة العامة فى الفلسفة القديمة ، هناك بعض النقاط القليلة من المدرسة الفلسفية العظيمة التى ظهرت بعد أرسطو وهى المدرسة الرواقية . فالميول الأصلية لصفات الفرد فى نظر الرواقيين غالبا ما تتحرك بصورة حتمية نحو العواطف المختلفة - من شهوات ، وحب، وكراهية ، وخوف ، وجرأة ، وغضب - وجميعها تسير فى اتجاه مضاد للحكمة المثالية التى يصعب تحقيقها على اطلاقها . وقوة العقل أو اللوجوس وانسجامها مع نظام العقل على المستوى الكوني ، تحتاج إلى لامبالاة كاملة ، أو إلى استبعاد العواطف تماما ، وبالتالى استبعاد كل الميول الشريرة التى تؤدى إلى العنف .

وهناك نقطتان يجب أخذهما فى الاعتبار بالنسبة للفلسفة اليونانية القديمة . أولهما أنه بينما يكون التعبير عن العنف على أنه التطرف أو الافعال المفرطة ، إلا أنه قد يرجع فى أصله إلى مواقف السكون أو مجموعة الظروف المستقرة نوعا ما، والتى يمكن حتي وصفها بصورة سطحية على أنها اتجاه سلمى . فمثلا : هل يخفى السكون النسبى الذى يعقب المظاهرات الصاخبة الهادرة فى ميدان تينانمين فى بيجنج ، عنفا أقل تحت سطح هذا السكون ؟ وليس من شك فى أن معاملة الشعوب السوداء الى شرعتها وقننتها أوربا فى الفترة من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر[1] ، قد عكست نوعا من الاستقرار الذى نتج عن استخدام القهر بالعنف الذى نادرا مالقيت أساليبه البغيضة أية معارضة ، والذى ظل مع هذا يعبر عن عدم المساواة على مدى تاريخ البشرية . والنقطة الثانية هى أن العنف البشرى بصورته هذه ، والذى طالما أصبح ظاهرة واضحة ومميزة للعلاقات البشرية . لايمكن أن يعجز عن توضيح الكيفية التى نرى بها أنفسنا وطبيعتنا ، وكذلك أصول وطبيعة المجتمع . وبدون أدنى شك يطرح علم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما من العلوم الانسانية أسئلة عديدة حول السلوك البشرى والتغيرات البيولوجية والفسيولوجية والعصبية التى ترتبط بالعنف أو تسببه . وطرق بحث هذه العلوم تسهم بالكثير فى تفسير الحقائق الى نتناولها هنا . فهى تقيس وتصوغ النظريات التى لاتكون لها قيما علمية (كما هو معروف) مالم تكن قابلة لاثبات العكس بأدلة مضادة . ويعد التصور الفلسفى من جهة أخرى شيئا مختلفا وأساسيا ، بل وسابقا لأشكال أخرى من المعرفة ، ويبدو أنه أقل اسهاما فى التوصل إلى نتائج تقنية حول الأمور أو الأحداث موضع البحث من المناهج التى تهدف إلى التوصل إلى نماذج أونظريات في ضوء العوامل الكمية والادراكية المحسوسة . والفلسفة هكذا لاتضيف شيئا إلى ابتكار محرك الطائرة أو إلى ضبط الأسلحة النووية الكفيلة بتدمير بلدة مثل هيروشيما أو دولة ما ، أو الكوكب بأكمله. فليس لها دور فى مجال تنويع انتاج محاصيل الحبوب ذات المحصول الوفير أو التى تقاوم البرد أو الآفات. وليس للفلسفة دور فى مجال مثل مجال بحوث الجينات الانسانية أو الطرق الفنية لتغيير هذه الجينات الوراثية إلى الأسوأ أو الأحسن . ذلك أن اهتمام الفلسفة يتركز حول الطبيعة البشرية . ومايجب أن يكون عليه المجتمع لكى يحقق آمال وتطلعات الطبيعة البشرية ، والمستويات الأخلاقية التى يجب أن تحكم جميع الموارد التقنية التى أنجزتها الطاقات البشرية وقدراتنا على الحفاظ عليها أو استنزافها ، والتى هى فى الحقيقة نتاج التقدم العلمى فى المجالات الواسعة .

فالمشكلة التى يطرحها العنف أمام العقل هى مشكلة فلسفية رفيعة . ومن المؤكد أن الكتاب قد تعمقوا فى نظرتهم إلى العنف وأعراضه العدوانية من منظور فلسفى وعلمى على حد سواء . فتحدث كونراد لورنز في كتابه الشهير «عن العدوان» حول العدوانية كفطرة تسهم «فى الحفاظ على الحياة وعلى بقاء النوع» . فليس من شك فى أن العدوانية قد خدمت المعيار الدارويني للانتخاب الطبيعى فى مجال التطور البشرى . ولكن هناك شك عما إذا كان هذا المعيار مازال يؤدى دورا فعالا . ويزعم لورنز أنه علي مثال ريش الطاووس ، وقرون الأيل ، قد يشجع الانتخاب بين الأنواع ظهور أشكال من التطور لاعلاقة لها بتحسين النوع . والمثل يقال عن الانسان العاقل ، كانت العدوانية (أو كما نسميها العنف) التى هى معيار الانتخاب الطبيعى فى مضمون دارون التطورى ، فى صالح ظهور «الفضائل شبه الحربية» التى يبدو أن تهديدها لمستقبل البشرية فى تزايد مستمر . ولكن حينما يصل لورنز إلى الخلاصة فى كتابه فإنه يوسع تعريف كلمة «عدوان» حتى يكاد لايخلو منها أى نشاط بشرى . أما بالنسبة لأشكال العدوان الأكثر بشاعة وقسوة ، فإن

لورنز(٢) مثله مثل روجركايوا(٣) يوصى بقيام أنشطة بديلة مثل الرياضة . ورغم أنه يتحدث بصراحة ضد الحرب (أى نوع من الحرب كما يبدو من كتاباته) ، فإنه يطرح اتجاها للجدل يستعيد بصورة غريبة أطروحات برتراند راسل(٤) فى مطلع هذا القرن فيقول لورنز (متحدثا عن الأوز) : «إن الرباط الاجتماعى الذى يضم الجماعة مرتبط ارتباطا وثيقا مع العدوان الموجه ضد الخارجيين . وبالنسبة للجنس البشرى أيضا نجد أن الشعور بالمعية الذى يعد عنصرا أساسيا فى خدمة الغرض المشترك ، يقوى مع وجود عدو معروف يتهدد الجماعة ، ويمكنها أن تشعر نحوه بالكراهية» . ويصعب التعرف على ماتتكون منه آراء لورنز فالمعنى الذى يخلعه على كلمة عدوان يكون أحيانا واسعا للغاية ، وفى أحيان أخرى محدودا للغاية . وهذا يؤدى إلى صعوبة تقدير القيمة الحقيقية للرسالة الانسانية التى ختم بها كتابه . ولعل منظوره الضيق عن أن الفلسفة ماهى إلا تعبير شعرى قد أعطته أملا قليلا فى العثور على حلول للمشكلات التى طرحها من خلال مجالات معرفية أخرى .

وربما كان بعض العلماء الآخرين الأقل اهتماما بالعناصر المدركة والقابلة للقياس فى أعمال العنف أقل ميلا إلى ارجاع العنف إلى غريزة العدوان . فلا يعتقد موير (٥) فى أننا نرث الميول العدوانية ، ولكنه يعترف بأن للعدوانية في المملكة الحيوانية بعض القيم التكيفية ، ولها آثار متناقضة ممثلة فى وجود مجموعة من العلاقات الثابتة ومن بينها مستوى العدوان . بيد أنه يميل مثله مثل لورنز إلى أن يقدر العدوانية على أنها لها قيمتها الحياتية الضعيفة فى عالم الجنس البشرى الحالى . أما بالنسبة للعنف الذى يقع فى المناطق الحضرية والذى أشرنا إليه فى بداية المقال ، فإنه مرضى يتمثل فى الهجوم على القوى الأصيلة التى توجد المجتمع وتحافظ على تماسكه . ويؤكد مايور فى هذا الصدد أهمية العوامل العصبية المتصلة بالسلوك العدوانى للبشر ، ومميزا بين الميول السلوكية المزمنة ، قاصدا بذلك احتمالات وجود نوع من السلوك على المدى الطويل ، أو المجموعة العصبية ، أو الميل نحو سلوك معين فى وقت معين . ويقول إن العدوانية تختلف نتيجة لعاملين (الظروف . وحالة الجهاز العصبى) ، وكيف يتفاعل هذا العاملان . وهناك عوامل أخرى عديدة مثل مستوى التستستيرون ، أو السلوك المكتسب بالتعليم فى جامعة معينة ، أو انخفاض نسبة السكر فى الدم ، أو ردود فعل الحساسية أو تعاطى الكحوليات ، أو الاضطرابات الذهنية، أو الموغزات الكهربية لبعض أجزاء المخ ، فجميعها قد تساعد على تفسير العدوان أو السلوك العنيف ، ولكن مايور حريص على تركيز الاهتمام على العوامل الثقافية وبخاصة العمليات العقلية التى تكمن وراء بعض أشكال المقاومة والعدوان .

والجنس البشرى والحيوانات مزودة طبيعيا ببناء مخى وعصبى قادر على الاستجابة للمثيرات الخارجية الحسية . ولكى تتمكن الحيوانات من البقاء والحياة أو التطور فى ظل البيئة الطبيعية والحيوية ، فلابد أن تكون قادرة ، ليس فقط على الرغبة فيما يبدو لها لذيذا أو مطلوبا ، ولكن أيضا لابد أن تكون قادرة على الاستجابة للعوامل السلبية أو الصعبة أو المهددة بالخطر من أشياء وأحداث تواجهها . فهى لاتدرك أن هذه الأشياء مرغوبة . وللحفاظ على البقاء أو الرفاهية ، لابد للحيوانات أن تكون قادرة على التحرك نحو الأشياء موضع الاهتمام . وهذا هو السبب وراء اعتقاد الفلاسفة القدماء وفلاسفة العصور الوسطى فى ضرورة عدم الاقتصار على أن تتضمن ما أسموه الشهية الحسية القدرة على الرغبة أو الخاصية الشهوانية Concupiscible ، ولكن لابد أن تضم أيضا كفاءة المواجهة أو مايسمونه الخاصية الغضبية irascible. ويعد هذا ميلا قتاليا ، أو قدرة على الاقدام ضد العقبات أو المعوقات التى يرى أنها تضر بتحقيق الرغبات الحسية . ونتيجة لما أظهرته مختلف فروع البحوث المتعلقة بالمخ ، أصبح علماء الأعصاب أكثر وضوحا ودقة في تحديدهم للانماط المخية التى تهيئ الروابط العضوية لهذه الميول ، والتى استطاعوا تعيين مواضعها باستخدام عمليات متعددة من المثيرات الكهربية وغيرها .

وإنى أرى أن من واجبنا أن نكون حريصين على ألا نضع الميل القتالى ، الذى يتحدد لدرجة كبيرة بناء على التقديرات الغريزية ، فى نفس الدرجة مع أشكال العنف البشرى والعدوان الذى يهمنا فى هذا المقال . وبالطبع ، قد تكون هناك دروس مستفادة من الاستقراء فى عالم الحيوان كما أوضح ذلك بعض كتاب قصص الحيوان ، ولكن مازال صحيحا أن العنف البشرى ينتمى إلى مستوى من الوعى تتجاوز مظاهره وآثاره حدود العوامل الغريزية الضيقة .

وإذا ماتركنا جانبا كل الأشكال المرضية للسلوك البشرى، فإن العنف البشرى سواء الفردى أو الجماعى يعكس لنا ويجسد المبادئ التى تتحكم فى الفكر والشعور

والفعل . وقد تختلف هذه المبادئ فيما بينها اختلافا طفيفا تبعا للتقاليد الثقافية ، ولكن الفرد يمارسها بدرجات متفاوتة من الوعى ، ولها فى الأساطير شكل محدد ، حيث يكون التعبير عن وعى الأفراد بأصولهم ، وبدواعى مصالحهم الشخصية ، والطبيعة البشرية وبأصول وأهداف الحياة فى المجتمع ، من خلال مجموعة من الصور . وفى المجتمعات التقليدية تتناقل الأجيال هذه المبادئ بحذافيرها ، ومن ثم يختلف البناء الاجتماعى ودور الفرد وأنواع السلوك اختلافا طفيفا يصعب إدراكه على مدى أزمنة طويلة .

ومع ظهور موهبة التفكير الناقد ، يبدأ الناس فى تفحص هذه المبادئ ويحدث على المدى الطويل تغير فى السلوك ، والأدوار ، والتقنيات ، لكى تعكس التحولات فى هذه المبادئ . والذى يهمنا فى مضمون هذا البحث بصفة خاصة هو العنف المتعمد الذى يحدث بوعى كامل ، وليس العنف الحيوانى أو العنف المرضى الذى لايتضمن مسئولية الانسان .

ونحن نتمسك هنا بأن معظم أشكال العنف ، تلك الأشكال التى تصل إلى أقصى مداها فى الحروب بين الجماعات ، ومختلف أنواع العنف الاجرامى ، والسلوك الفردى أو الجماعى الذى يسهم فى خلق عدم التوازن أو الاختلال الاقتصادى ، والتوزيع غير العادل للثروات ومنتجات الأرض مما يؤدى إلى الفقر والمجاعات ، وكل أنواع البؤس ، وكذلك كل أشكال السلوك التى تعرض للخطر مختلف درجات التكامل المادى أو النفسى أو الأخلاقى بالنسبة للأفراد أو المجموعات الثقافية ، وجميع أشكال القهر التى تمارسها الشرطة أو القوات المسلحة وتؤدى إلى اعاقة الممارسة المعقولة للحريات - نتمسك بأن معظم أشكال العنف هذه تعتمد من أول وهلة على الطريقة التى ندرك بها الطبيعة البشرية ، وعلاقتها بالعالم ، وطبيعة وأصول المجتمعات ، أو بمعنى آخر تعتمد على الفلسفة السائدة التى ترتكز عليها حياة الفرد والجماعة .

وحينما يستجيب المخ البشرى والجهاز العصبى للعقبات والصعاب والأخطار بالتجاسر أو الخوف أو الغضب ، فلا نسمى ذلك ميولا عدوانية . فلا يوجد عنف فطرى إلا فى حالة ماتكون الطبيعة الانسانية والبناء الاجتماعى المتولد عن تلك الطبيعة متضمنا ميلا ظاهرا نحو العنف ؛ أو على الأقل هذه هى الكيفية التى تنظر بها معظم النظم الفلسفية المعاصرة ذات التأثير إلى هذا النوع من العنف .

ولقد أنكر توماس هوبز(٦) منذ بداية حياته الفكرية تعريف أرسطو للانسان العاقل على أنه حيوان سياسى . وفى ذلك يقول «إنها مسلمة ، رغم أن الأغلبية تلقتها بالقبول ، إلا أنها بالتأكيد زائفة ، وهو خطأ تأتى من تأملاتنا الشديدة السطحية فى الطبيعة البشرية» . وهو على العكس يعتقد فى أن أبناء الجنس البشرى بوضعهم الطبيعى مدفوعون بالخوف المتبادل و«ارادة الايذاء المتبادل» . فكل شخص خطير كالذئب في نظر الآخرين . «وكان من حق كل انسان فى الوضع الطبيعى المجرد ، أو قبل أن يدخل الناس فى أى اتفاق فيما بينهم ، أو يرتبطوا معا ، من حقه أن يفعل مايشاء ضد من يشاء وفقا لما يعتقد أنه مناسب له ، و أن يمتلك ويستخدم ويستمتع بكل ما يشاء ويمكنه الحصول عليه» .

ولكن تحقيق ارادة الفرد فى ايذاء الآخرين وامتلاك مايشاء لاتتأتى بلا مخاطرة تتعرض لها حياة الفرد أو تكامله الطبيعى والعقلى ، وذلك لأنه لايوجد بيننا من هو على درجة من القوة تمنع أية مجموعة قليلة من الناس تتآمر ضدنا أن تعرض حياتنا للخطر . لذلك فلكى نضمن التمتع ببعض خيرات الأرض ، وأن نكون فى حماية من عنف الآخرين ، فإن عقلنا يتحرك بنا نحو التنازل عن طموحاتنا الطبيعية وأن نسمح للآخرين بالمشاركة معنا فى نصيب معقول ، ويتم ذلك باتفاق متبادل أو عقد . ويقتضى مثل هذا الموقف أن تخول جميع السلطات والقوة لشخص ما لينظر فى بنود العقد ويزيل منها الثغرات . فلم تعد الحياة فى المجتمع تعتبر من حصائد نزعات الأجناس البشرية لتطوير قدراتهم من أجل الوصول إلي النضوج الكامل ، ولكنها نوع من الحل البديل الذى لابد أن نقبله لحاجتنا إلى ماهو أفضل . وطبيعى أن كل شخص يريد أن يمتلك كل شئ ويسود ويستمتع بكل شئ ، ولكن اشباع هذه النزعات الفطرية لايؤدى فى النهاية إلا إلى بؤس الفرد . وذلك هو السبب الذى جعلنا نوافق على كبح جماح هذه النزعات ، فنتجه إلى المجتمع لنوقع العقد الاجتماعى ، ليس لكى تكتمل انسانيتنا بتحقيق أقصى مايمكننا ، ولكن لكى نستمتع فى سلام بجزء من الفوائد التى قد يمنعنا عنف الآخرين عن الاستمتاع بها بصورة كاملة .

فالمجتمع الذى يوضع تصميمه آخذا فى حسابه ذلك ، ليس لديه خيار سوى أن يكون مجتمعا قمعيا ، ولابد أن يسلح نفسه ضد ظهور الميول الطبيعية لدى مواطنيه للسلب من الآخرين ، ولابد أيضا أن يسلح نفسه خاصة

ضد الدوافع التى تؤدى بالشعوب إلى السيطرة على شعوب أخرى .

ونجد نفس نمط التفكير مع بعض الاختلاف فى مؤلفات الكثير من أصحاب النظريات الحديثة عن أصل المجتمع . فيأخذ فرويد(٧) فى حديثه عن أصل الدين والمجتمع بنظرية هوبز ويضعها في شكل أكثر وضوحا . فيحكى فرويد أن مجموعة من الأخوة استبعدوا من عشيرة بدائية- بأمر من الأب الطاغية الذين كانوا يكرهونه بسبب القسوة التى يعاملهم بها ، ولكنهم فى نفس الوقت يحبونه ويعجبون به ، تآمر هؤلاء الأخوة ضد أبيهم فقتلوه ولكنهم شعروا بالذنب فأكلوه لكى يكتسبوا صفاته التى كانوا يعجبون بها . واعترفوا أيضا بأنه لايجوز لأحد هم أن يأخذ كل شئ لنفسه كما فعل الأب ، وبهذه الطريقة ومن خلال الاتفاق على انكارالذات كما في رواية هوبز بدأ يظهر شكل من الحياة الاجتماعية فيه وعد من كل عضو فى الجماعة أن يحمى حياة الآخرين ، ويوافق على ألا يبتليهم بما ابتلاهم به أبوهم . وبعرض الحكاية هكذا تعتبر الحياة الاجتماعية نتاجا للتخلى عن موقف أصلى طبيعى أو تغلب عليه الصفة الفطرية ، ولكنه كان غير متفق مع الحياة فى مجتمع . وهنا أيضا نجد أن الميل إلى العنف متأصل فى الطبيعة البشرية ، ولكنه معروض بطريقة أكثر أصولية من الطريقة التى وصفه بها هوبز . هكذا يبدو أن المجتمع أمر حيوى بالنسبة لأمن الأفراد ، ولكنه أيضا يمارس إلي حد ما كبح الميول التى كانت تميز علاقاتنا مع البيئة الطبيعية والبشرية فى المرحلة الفطرية من حياة الانسان التى سبقت الحياة فى مجتمع .

ويمكننا مواصلة الاقتباس من فلاسفة مختلفين مثل برتراند راسل ، وهنرى برجسون ، وچان پول سارتر ، وموريس ميرلو پونتى . ولكن نصل إلى ماكتبه هابرماس حديثا عن «عنف النظام الذى يتحكم فى الحياة الحديثة» ، لأن «النظرة المتعمقة للباحث فى العلوم الانسانية يمكن أن تشغل المركز الرئيسى للمراقبة الذى منه يمكن للانسان رؤية الأشياء دون أن يكون مرئيا»(٨) . ألا تعتبر الأهمية الكبرى التى احتلها العنف البشرى فى الفكر الحديث منبثقة عن عزل الآخرين أو انكار أهليتهم؟ فبدون الآخرين لن يتواجد مجتمع ، فهل لايعتبر هذا هو المشكلة الحاسمة التى لايمكن تفاديها والتى حاول ديكارت جاهدا أن يجد لها حلا ؟ فأخذ ديكارت لصيغة «أنا أفكر» كنقطة بداية، يعتبر بمثابة صَدَفة أخليت من مضمون الشك ، والنفس أو الذات التى يستخرجها منها متواجدة حتما في الكل الطبيعى أو الاجتماعى . وعلى العكس من ذلك ربما أعيد اكتشاف الموضوعية الخافية لدى الآخرين فقط بطريقة ملتوية لايعتمد عليها . ونظرا لأن لدينا صعوبة فى التفكير فى العامل الاجتماعى للحياة إلا على أنه نتاج للذات ومصالحها ، فلا يدهشنا لو أن علاقاتنا بالآخرين دمغت بطابع عدم التفاهم والعنف .

ورغم ذلك ، لو أن الانسان العاقل أساسا حيوان اجتماعى ، ولو أننا أدركنا الآخرين فى نفس الوقت الذى ندرك فيه وجودنا ، إذن فالعنف البشرى مثله مثل الخطيئة، لايمكن اعتباره أصليا ، بل هو جزء من التجاوز المستقبح الكريه الذى قد نتعرض للاتجاه إليه فى أثناء تقدمنا كأفراد أو جماعات نحو النضج البشرى . ومن جهة أخرى فإن المجتمعات الحديثة ، وكل ما يحكمها من دساتير وقوانين قد تأثرت تأثرا قويا بالمفاهيم الخاصة بالطبيعة البشرية والمجتمع الذى يلوح فيه العنف بصورة ضخمة ، نتيجة للمبالغة المفطورة فى تأكيد الذات ، وما يترتب عليها من العمل على انكار ذاتية الآخرين ، وبالتالى التنكر للوحدة العضوية للمجتمع .

Notes

1. See Louis Sala-Molins, *Le Code Noir ou Le Calvaire de Canaan*. Paris: PUF, 2nd edition, 1988.

2. Konrad Lorenz, *On Aggression*, translated by Marjorie Latzke. Methuen, 1967.

3. Roger Caillois, *L'Homme et le sacré*, pp. 215–23.

4. Lorenz, ibid. p. 245; for Bertrand Russell, see *Authority and the Individual*. London: Unwin, 1965, pp. 17, 34. For more details, see the author's 'Trois points de vue sur la paix'. In Venant Cauchy (ed.), *Conceptions de la paix dans l'histoire de la philosophie*. Montreal: Editions Montmorency, 1987, pp. 107–18.

5. K.E. Moyer, *Violence and Aggression*. New York: Paragon House, 1987.

6. T. Hobbes, *De Cive*. Oxford: Clarendon Press, 1983, pp. 42, 47.

7. S. Freud, *Totem and Taboo*, IV,5. New York: The Modern Library, 1938.

8. Jürgen Habermas, *Le Discours philosophique et la modernité*, translated into French by Christian Bouchindhomme and Rainer Rochlitz. Paris: Gallimard, 1985.